

ويحلوا بساحته [وهذه الأمور لو قارنها بالإيمان وبنيت عليه لأنثرت الرقي العالي، والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير، منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير^(٦)].

﴿٨ - ١٠﴾ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون * أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ثم كان عاقبة الذين أسأوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن * أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله ولقائه ﴿في أنفسهم﴾ فإن في أنفسهم آيات يعرفون^(٧) بها، أن الذي أوجدتهم من العدم، سعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي، قد نفخ فيه الروح، إلى طفل، إلى شاب، إلى شيخ، إلى هرم، غير لائق أن يتركهم سدى مهملين، لا يهتمون ولا يؤمرون، ولا يشاؤون ولا يعاقبون.

﴿ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ [أي] ليلوكم أيكم أحسن عملاً. ﴿وأجل مسمى﴾ أي: مؤقت بقاؤها إلى أجل تنقضي به الدنيا، ونجى به القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

﴿وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون﴾ فلذلك لم يستعدوا للاقائه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به، وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة، قد دلت على البعث والجزاء،

أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها، المتصرف فيها.

﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب.

وأظهروا من العجائب الذرية^(٨) والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك، أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رأهم أهل البصائر النافذة، في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون^(٩). نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ثم^(١٠) نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه، من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، [وما] حرموا من العقل العالي، فعرفوا^(١١) أن الأمر لله، والحكم له في عباده، وإن هو إلا توفيقه وحذلانه، فخافوا^(١٢) ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم، من نور العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه،



لا يدخل في الحساب.

﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه.

فلما نزلت هذه الآيات، التي فيها هذا الوعد، صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة ستين عينوها، فلما جاء الأجل، الذي ضربه الله، انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله.

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها، من المسلمين والمشركين. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته، وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ فينظرون إلى الأسباب، ويميزون بوقوع الأمر الذي في رأيهم اعتقدت

(٧) كذا في ب، وفي أ: يعرف.

(٨) في ب: عدلت إلى: تعرفوا.

(٩) في ب: عدلت إلى ولخافوا.

(١٠) زيادة من هامش ب، لم يتضح أولها وقد نقلته من طبعة السلفية.

(١) كذا في ب، وفي أ: النارية.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يترددون.

(٣) هكذا في النسختين، وقد شطبت الكلمة في ب، وجعل بدلها (ولو).

خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿أي: ومن آياته، أن ينزل عليكم المطر، الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريككم قبل نزوله مقدماته، من الرعد والبرق، الذي يخاف ويُطمع فيه.

﴿إن في ذلك لآيات﴾ [دالة] على عموم إحسانه، وسعة علمه، وكمال إتيانه، وعظيم حكمته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها. ﴿لقوم يعقلون﴾ أي: لهم عقول، تعقل بها ما تسمعه، وتراه وتحفظه، وتستدل به على ما جعل دليلاً عليه.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون * وله من في السماوات والأرض كل له قانتون * وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ أي: ومن آياته العظيمة، أن قامت السماوات والأرض واستقرتا، وثبتتا بأمره فلم تتزلزلا، ولم تسقط السماء على الأرض، فقدردته العظيمة، التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا، يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض، إذا هم يخرجون ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾.

﴿وله من في السماوات والأرض﴾ الكل خلقه ومماليكه، المتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض، وكلهم قانتون لجلاله، خاضعون لكماله.

﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو﴾ أي: الإعادة للخلق بعد موتهم ﴿أهون عليه﴾ من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول، فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقرون به، كانت ^(١) قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى.

ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به

يعتبر المعتبرون، ويتذكر المؤمنون ويتبصر المهتدون، ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير، فقال: ﴿وله المثل الأعلى في السماوات والأرض﴾ وهو كل صفة كمال، والكمال من تلك الصفة، والمحبة، والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين، والذكر الجليل، والعبادة منهم. فالمثل الأعلى، هو وصفه الأعلى، وما ترتب عليه.

ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات، فخالقها أحق بالاتصاف بها، على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه، فتنزه الخالق عنه من باب أولى وأحرى.

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي: له العزة الكاملة، والحكمة الواسعة، فعزته، أوجد بها المخلوقات وأظهر المأمورات، وحكمته، أتقن بها ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه.

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿ضرب لكم مثلاً﴾ من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون * بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى، لقيح الشرك وتبجيه، مثلاً من أنفسكم، لا يحتاج إلى حل وترحال، وإعمال الجمال.

﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ أي: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء.

﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة، الذين يخاف من قسمه، واختصاص كل شيء بحاله؟

ليس الأمر كذلك، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكاً لكم فيما

رزقكم الله تعالى.

هذا، ولستم الذين خلقتموهم ورزقتموهم، وهم أيضاً عماليك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا الله شريكاً من خلقه، وتجعلونه بمنزلته، وعديلاً له في العبادة، وأنتم لا ترضون مساواة ممالككم لكم؟ هذا من أعجب الأشياء، ومن أدل شيء على [سفه] ^(٢) من اتخذ شريكاً مع الله، وأن ما اتخذ باطل مضمحل، ليس مساوياً لله، ولا له من العبادة شيء.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ بتوضيحها بأمثلتها ﴿لقوم يعقلون﴾ الحقائق ويعرفون، وأما من لا يعقل، فلو فصلت له الآيات، وبيّنت له البيّنات، لم يكن له عقل يبصر به ما تبين، ولا لب يعقل به ما توضح، فأهل العقول والألباب، هم الذين يساق إليهم الكلام، ويوجه الخطاب.

وإذا علم من هذا المثال، أن من اتخذ من دون الله شريكاً يعده ويتوكل عليه في أموره، فإنه ليس معه من الحق شيء، فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل، توضح له بطلانه وظهر برهانه؟ [لقد] ^(٣) أوجب لهم ذلك اتباع الهوى، فلماذا قال: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ هويت أنفسهم الناقصة، التي ظهر من نقصانها ما تعلق به هواها، أمراً يجزم العقل بفساده، والفطر برده، بغير علم دلهم عليه، ولا برهان قادم إليه.

﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي: لا تعجبوا من عدم هدايتهم، فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم، ولا طريق لهادية من أضل الله، لأنه ليس أحد معارضاً لله، أو منازعاً له في ملكه.

﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم حين تحق عليهم كلمة العذاب، وتقطع بهم الوصل والأسباب.

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم

(٣) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(١) في النسخين: كان.

وباطل، فيكونون مشاهين بذلك للمشركين في التفرق، بل الدين واحد، والرسول واحد، والآله واحد.

وأكثر الأمور الدينية، وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية، قد عقدها الله وربطها أتم ربط، فما بال ذلك كله يُلغى، ويُبنى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية، أو فروع خلافية، يضل بها بعضهم بعضاً، ويتميز بها بعضهم عن بعض؟

فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده، التي كاد بها للمسلمين؟

وهل السعي في جمع كلمتهم، وإزالة ما بينهم من الشقاق، المبني على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله، وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟

ولما أمر تعالى بالإنيابة إليه - وكان الأمور بها، هي الإنيابة الاختيارية، التي تكون في حالي العسر واليسر، والسعة والضيق - ذكر الإنيابة الاضطرارية، التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكرهه، فإذا زال عنه الضيق، نبذها وراء ظهره، وهذه غير نافعة، فقال:

﴿٣٣ - ٣٥﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يَشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ مَرَضٌ، أَوْ خَوْفٌ مِنْ هَلَاكٍ، وَنَحْوَهُ. دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَنَسُوا مَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ فِي تِلْكَ الْحَالِ، لَعَلَّهُمْ أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ الضَّرَّ إِلَّا اللَّهُ.﴾

﴿ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً شَفَاهُمْ مِنْ مَرَضِهِمْ، وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفِهِمْ، إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَنْقُضُونَ تِلْكَ الْإِنِّيَابَةَ

الناس لا يعلمون﴾ فلا يعرفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه.

﴿منيبين إليه واتقوه﴾ وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن الإنيابة إنيابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى.

ويلزم من ذلك، حمل (٢) البدن بمقتضى ما في القلب، فشمّل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة، فلذلك قال: ﴿واتقوه﴾ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات. وخص من المأمورات الصلاة، لكونها تدعو إلى الإنيابة والتقوى، لقوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ فهذا إنيابته على التقوى.

ثم قال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ فهذا حثها على الإنيابة.

وخص من المنهيات أصلها، والذي لا يقبل معه عمل، وهو الشرك، فقال: ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ لكون الشرك مضاداً للإنيابة، التي روحها الإخلاص من كل وجه.

ثم ذكر حالة المشركين مهجناً لها ومقبحاً، فقال: ﴿من الذين فرقوا دينهم﴾ مع أن الدين واحد، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود، ومنهم نصارى.

ولهذا قال: ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي: كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت، على نصر ما معها من الباطل، ومنايذة غيرهم ومحاربتهم.

﴿كل حزب بما لديهم﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فرحون﴾ به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق، وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقاً، كل فريق يتعصب لما معهم من حق

ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال، وإقامة دينه، فقال: ﴿فأقم وجهك﴾ أي: انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام، والإيمان، والإحسان، بأن تتوجه بقلبك، وقصدك، وبدنك إلى (١) إقامة شرائع الدين الظاهرة، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج ونحوها. وشرائعه الباطنة، كالمحبة، والخوف، والرجاء، والإنيابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك.

وخص الله إقامة الوجه، لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سَعْيُ البدن، ولهذا قال: ﴿حنيفاً﴾ أي: مقبلاً على الله في ذلك، معرضاً عما سواه.

وهذا الأمر الذي أمرناك به، هو ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ ووضع في عقولهم حسنها، واستباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع، الظاهرة والباطنة، قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم، الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق، وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة.

ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارض عرض لفطرته أفسدها، كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي: لا أحد يبديل خلق الله، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله. ﴿ذلك﴾ الذي أمرنا به ﴿الدين القيم﴾ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله، وإلى كرامته، فإن من أقام وجهه للدين حنيفاً، فإنه سالك الصراط المستقيم، في جميع شرائعه وطرقه، ﴿ولكن أكثر

(١) كذا في ب، وفي أ: على.

(٢) في ب: عمل.

التي صدرت منهم، ويشركون به من لا دفع عنهم ولا أغنى، ولا أفقر ولا أغنى، وكل هذا كفر بما آتاهم الله ومن به عليهم، حيث أنجاهم، وأنقذهم من الشدة، وأزال عنهم المشقة، فهلاً قابلوا هذه النعمة الجليلة، بالشكر والدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال؟

﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً﴾ أي: حجة ظاهرة ﴿فهو﴾ أي: ذلك السلطان، يتكلم بما كانوا به يشركون ويقول لهم: اثبتوا على شرككم، واستمروا على شككم، فإن ما أنتم عليه هو الحق، وما دعتكم الرسل إليه باطل.

فهل ذلك السلطان موجود عندهم، حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك؟ أم البراهين العقلية والسمعية، والكتب السماوية، والرسل الكرام، وسادات الأنام، قد نهوا أشد النهي عن ذلك، وحذروا من سلوك طرقه الموصلة إليه، وحكموا بفساد عقل ودين من ارتكبه؟

فشرك هؤلاء بغير حجة ولا برهان، وإنما هو أهواء النفوس، ونزغات الشيطان.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾ أولم يروا أن الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس، في حال الرخاء والشدة، أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة، من صحة، وغنى، ونصر ونحو ذلك، فرحوا بذلك فرح بطر، لا فرح شكر وتبجح بنعمة الله.

﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي: حال تسوؤهم، وذلك ﴿بما قدمت أيديهم﴾ من المعاصي. ﴿إذا هم يقنطون﴾ ييأسون من زوال ذلك الفقر والمرض، ونحوه. وهذا جهل منهم وعدم معرفة.

﴿أولم يروا أن الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ فالقنوط بعدما علم أن الخير والشر من الله، والرزق، سعته

وضيقه من تقديره، ضائع ليس له عمل. فلا تنظر أيها العاقل لمجرد الأسباب، بل اجعل نظرك لمسبها، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ فهم الذين يعتبرون بسط الله لمن يشاء وقبضه، ويعرفون بذلك، حكمة الله ورحمته وجوده، وجذب القلوب لسؤاله في جميع مطالب الرزق.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ ﴿فأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجهه الله وأولئك هم الفلحون﴾ وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ أي: فأعط القريب منك - على حسب قربه وحاجته - حقه الذي أوجبه الشارع، أو حضض عليه، من النفقة الواجبة، والصدقة، والهدية، والبر، والسلام، والإكرام، والعفو عن زلته، والمساعدة عن هفوته. وكذلك [أت] المسكين، الذي أسكنه الفقر والحاجة، ما تنزله به حاجته، وتدفع به ضرورته، من إطعامه وسقيه وكسوته.

﴿وابن السبيل﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده، الذي في مظنة شدة الحاجة، لأنه لا مال معه، ولا كسب قد دبر نفسه به [في] سفره، بخلاف الذي في بلده، فإنه وإن لم يكن له مال، ولكن لا بد - في الغالب - أن يكون في حرفة، أو صناعة ونحوها تسد حاجته، ولهذا جعل الله في الزكاة حصّة للمسكين وابن السبيل.

﴿ذلك﴾ أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ﴿خير للذين يريدون﴾ بذلك العمل ﴿وجهه الله﴾ أي: خير غزير، وثواب كثير، لأنه من أفضل الأعمال الصالحة، والنفعة المتعدي، الذي وافق محله المقرون به الإخلاص.

فإن لم يرد به وجه الله، لم يكن خيراً للمُعطي، وإن كان خيراً ونفعاً للمُعطى كما قال تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف

ورحمة للذين آمنوا واتقوا الله والذين آمنوا هم خير من الذين كفروا وهم خير من الذين كفروا ﴿١﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٢﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٣﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٤﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٥﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٦﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٧﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٨﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٩﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿١٠﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿١١﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿١٢﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿١٣﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿١٤﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿١٥﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿١٦﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿١٧﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿١٨﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿١٩﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٢١﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٣١﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٤١﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٥١﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٦١﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٧١﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٨١﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٩١﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿والذين آمنوا وهم خير من الذين كفروا﴾ ﴿١٠٠﴾

أو إصلاح بين الناس. مفهومها، أن هذه المشتات خير لنفعها المتعدي، ولكن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً.

وقوله: ﴿وأولئك﴾ الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله ﴿هم﴾ الفلحون ﴿الفلحون﴾ الفائزون بشواب الله، الناجون من عقابه.

ولما ذكر العمل الذي يقصد به وجهه، [من النفقات] ذكر العمل الذي يقصد به مقصد دنيوي، فقال: ﴿وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس﴾ أي: ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وقصدكم بذلك أن يربو، أي: يزيد في أموالكم، بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها، فهذا العمل لا يربو أجره عند الله، لكونه معدوم الشرط، الذي هو الإخلاص. ومثل ذلك العمل الذي يراد به الزيادة في الجاه، والرياء عند الناس، فهذا كله لا يربو عند الله.

﴿وما آتيتم من زكاة﴾ أي: مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة، ويظهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة المُعطى. ﴿تريدون﴾ بذلك

﴿وجهه الله فأولئك هم المضعفون﴾ أي: المضاعف لهم الأجر، الذين تربو نفعاتهم عند الله، ويربيها الله لهم، حتى تكون شيئاً كثيراً.

أن يستأنفوا^(٣) العمل، بل فرغ من الأعمال، لم يبق إلا جزء العمال. ﴿يومئذ يصدعون﴾ أي: يتفرقون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتين، ليُزوا أعمالهم.

﴿٤٤﴾ ﴿مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ فَعَلِيهِ كُفْرُهُ﴾ ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى، ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحاً﴾ من الحقوق التي لله، أو التي للعباد، الواجبة والمستحبة، ﴿فَلَا نُنْفِئُ عَنْهُمُ﴾ لا لغيرهم ﴿بِمَهْدُونِ﴾ أي: يهتدون، ولأنفسهم يعمرسون آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنزلها وغرفاتها، ومع ذلك، جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يميزهم الله من فضله الممدود، وكرمه غير المحدود، ما لا تبلغه أعمالهم. وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب الله عبداً صب عليه الإحسان صباً، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة.

وهذا بخلاف الكافرين، فإن الله لما أبغضهم ومقتهم، عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ يَرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ وَلِتُبْتَغَى مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى، وأنه الإله المعبود، والملك المحمود، ﴿أَنْ يَرْسِلَ الرِّيحَ﴾ أمام المظر ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ بإثارتها للصحاب ثم جمعها، فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله.

﴿وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ فينزل عليكم من رحمته مطراً، تحيا به البلاد والعباد، وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد والجالية لأرزاقهم، فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، الفاتحة لخزائن الرحمة.

﴿وَلِتَجْرِيَ الْفَلَكَ﴾ في البحر

أي: استعلن الفساد في البر والبحر، أي: فساد معاشهم ونقصها، وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء، وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة، المفسدة بطبيعتها.

هذه المذكورة ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فعجل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا ﴿لعلهم يرجعون﴾ عن أعمالهم، التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم، ويستقيم أمرهم.

فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، وإلا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿٤٢﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ كان أكثرهم مشركين، والأمر بالسير في الأرض، يدخل فيه السير بالأبدان^(٢)، والسير في القلوب، للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين.

﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ يتحدثون عاقبتهم شر العواقب، ومآلهم شر مآل، عذاب استأصلهم، ودم ولعن من خلق الله يتبعهم، وخزي متواصل، فاحذروا أن تفعلوا فعالهم، تحذى بكم حذوهم، فإن عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ * مِنْ كُفْرٍ فَعَلِيهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحاً فَلَا نَفْسَهُمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أي: أقبل بقلبك، وتوجه بوجهك، واسع ببذنك، لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفذ أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك، ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو يوم القيامة، الذي إذا جاء لا يمكن رده، ولا يرجأ العاملون



وَدَلُّ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا اتَّيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ﴾

أن الصدقة مع اضطرار من يتعلق بالمنفق، أو مع ذنن عليه لم يقضه، ويقدم عليه الصدقة، أن ذلك ليس بزكاة يؤجر عليه العبد، ويرد تصرفه شرعاً، كما قال تعالى في الذي يمدح: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ فليس مجرد إيتاء المال خيراً، حتى يكون هذه الصفة، وهو: أن يكون على وجه يتزكى به المؤتي.

﴿٤٠﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم، وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوهم المشركون، من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء.

فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور، من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟!!

فسبحانه وتعالى، وتقدس وتنزه، وعلا عن شركهم، فلا يضره ذلك، وإنما وبالهم^(١) عليهم.

﴿٤١﴾ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

(١) في ب: وباله.

(٢) كذا في ب، وفي أ: في الأبدان. (٣) في ب: ليستأنفوا.

﴿بأمره﴾ القدري ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ بالتصرف في معاشكم ومصالحكم.

﴿ولعلكم تشكرون﴾ من سخر لكم الأسباب، وسير لكم الأمور. فهذا المقصود من النعم، أن تقابل بشكر الله تعالى، ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم.

وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي، فهذه حال من بدل نعمته الله كفراً، ونعمته عنة، وهو معرض لها للزوال، والانتقال منه إلى غيره.

﴿٤٧﴾ ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبيئات فانقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾ في الأمم السابقتين ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ حين جحدوا توحيد الله، وكذبوا بالحق، فجاءتهم رسالهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص، والتصديق بالحق، وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وجاؤهم بالبيئات والأدلة على ذلك، فلم يؤمنوا، ولم يزولوا عن غيهم. ﴿فانقمنا من الذين أجرموا﴾ ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل. ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ أي: أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة ووعدناهم به، فلا بد من وقوعه.

فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ، إن بقيتم على تكذيبكم، حلت بكم العقوبة، ونصرناه عليكم.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويعمله كسفاً فتري الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين * فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير * يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتمام نعمته،

أنه ﴿يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ من الأرض، ﴿فيبسطه في السماء﴾ أي: يمدده ويوسعه ﴿كيف يشاء﴾ أي: على أي: حالة أرادها من ذلك، ثم ﴿يعمله﴾ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كسفاً﴾ أي: سحاباً ثخيناً، قد طبق بعضه فوق بعض.

﴿فتري الودق يخرج من خلاله﴾ أي: السحاب، نقطاً صغيراً متفرقة، لا تنزل جميعاً، فتفسد ما أتت عليه.

﴿فإذا أصاب به﴾ بذلك المطر ﴿من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ يبشر بعضهم بعضاً بنزوله، وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه، فهذا قال: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ أي: آيسين قانطين لتأخر وقت مجيئه، أي: فلما نزل في تلك الحال، صار له موقع عظيم [عندهم] ^(١)، وفرح واستبشار.

﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾ فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم.

﴿إن ذلك﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ فقدرته تعالى، لا يتعاصى عليها شيء، وإن تعاصى على قدر خلقه، ودق عن أفهامهم، وحرارت فيه عقولهم.

﴿٥١ - ٥٣﴾ ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرة لظلوا من بعده يكفرون﴾

فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهاد العمي عن ضلالهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون * يخبر تعالى عن حالة الخلق، وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها، ونشر رحمة الله تعالى، لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر، وعلى زروعهم، ريحاً مضرّة متلفة أو منقصة، ﴿فرأوه مصفرة﴾ قد تداعى إلى التلّف ﴿لظلوا من بعده يكفرون﴾ فينسبون النعم الماضية، ويادرون إلى الكفر.

وهؤلاء، لا ينفع فيهم وعظ ولا

﴿٥٤﴾ ﴿الله الذي خلقكم من الأرض فأظلمت لكم فيها فبصر من قبله كان أكنة ثم يشرككم﴾ فأنقذكم من الظلمة من قبل أن يأتى يوم الأمد من الله يوم يصعد العرش * من كذب بعد ذلك فأهله مما يشرك به فلن نحسن له جزاءً * ﴿٥٥﴾ ﴿الله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويعمله كسفاً فتري الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ يبشر بعضهم بعضاً بنزوله، وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه، فهذا قال: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ أي: آيسين قانطين لتأخر وقت مجيئه، أي: فلما نزل في تلك الحال، صار له موقع عظيم [عندهم] ^(١)، وفرح واستبشار.

﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾ فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم.

﴿إن ذلك﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ فقدرته تعالى، لا يتعاصى عليها شيء، وإن تعاصى على قدر خلقه، ودق عن أفهامهم، وحرارت فيه عقولهم.

﴿٥١ - ٥٣﴾ ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرة لظلوا من بعده يكفرون﴾

فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهاد العمي عن ضلالهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون * يخبر تعالى عن حالة الخلق، وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها، ونشر رحمة الله تعالى، لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر، وعلى زروعهم، ريحاً مضرّة متلفة أو منقصة، ﴿فرأوه مصفرة﴾ قد تداعى إلى التلّف ﴿لظلوا من بعده يكفرون﴾ فينسبون النعم الماضية، ويادرون إلى الكفر.

وهؤلاء، لا ينفع فيهم وعظ ولا

زجر ﴿فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء﴾ وبالأولى ﴿إذا ولوا مدبرين﴾ فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد والسماع النافع، كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسي.

﴿وما أنت بهاد العمي عن ضلالهم﴾ لأنهم لا يقبلون الإبصار بسبب عماهم فليس منهم ^(٢) قابلة له.

﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ فهوؤلاء الذين ينفع فيهم إسماع الهدى، المؤمنون بآياتنا بقولهم، المقادون لأوامرنا، المسلمون لنا، لأن معهم الداعي القوي لقبول النصائح والمواظ، وهو استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدرون عليه من أوامر الله ونواهيه.

﴿٥٤﴾ ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه، وعظيم اقتداره، وكمال حكمته، ابتداء خلق آدميين من ضعف، وهو الأطوار الأول من خلقه، من نقطة إلى علقه إلى مضغة إلى أن صار حيواناً في الأرحام، إلى أن ولد، وهو في سن الطفولية، وهو إذ

(٢) في ب: فيهم.

(١) زيادة من: ب.

اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا. ولما كان قولهم كذباً لا حقيقة له، قال تعالى: ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾

أي: ما زالوا - وهم في الدنيا - يؤفكون عن الحقائق، ويأتفكون الكذب، ففي الدنيا، كذبوا الحق الذي جاءهم به المرسلون، وفي الآخرة، أنكروا الأمر المحسوس، وهو اللبث الطويل في الدنيا، فهذا خلقهم القبيح، والعبد يبعث على ما مات عليه.

﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان﴾

أي: من الله عليهم بهما، وصاروا وصفاً لهم، العلم بالحق، والإيمان المستلزم إظهار الحق، وإذا كانوا عاملين بالحق، مؤثرين له، لزم أن يكون قولهم مطابقاً للواقع، مناسباً لأحوالهم.

﴿فلهذا قالوا الحق﴾

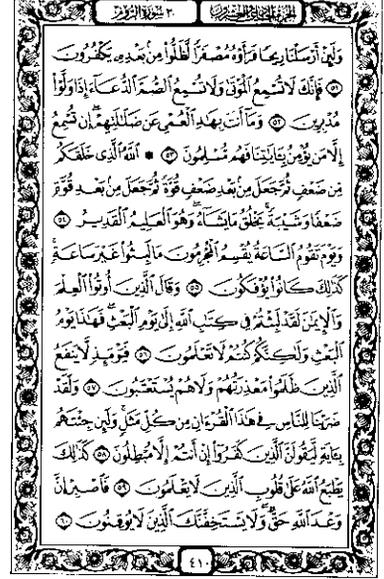
فلهذا قالوا الحق: ﴿لقد لبثتم في كتاب الله﴾ أي: في قضائه وقدره، الذي كتبه الله عليكم، وفي حكمه ﴿إلى يوم البعث﴾ أي: عمرتم عمرأ يتذكر فيه المتذكر، ويتدبر فيه المتدبر، ويعتبر فيه المعبر، حتى صار البيعت ووصلتم إلى هذه الحال.

﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم﴾

لا تعلمون﴾ فلذلك أنكروتموه في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتاً تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم ينزل الجهل شعاركم، وأثاره من التكذيب والخسار دثاركم.

﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا﴾

معذرتهم﴾ فإن كذبوا وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة، أو ما تمكنوا من الإيمان، ظهر كذبهم، بشهادة أهل العلم والإيمان، وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعتذار وأنهم يردون ولا يعودون لما نهبوا عنه،



ذاك في غاية الضعف، وعدم القوة والقدرة. ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئاً فشيئاً، حتى بلغ سن الشباب واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور، ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم.

﴿يخلق ما يشاء﴾ بحسب حكمته. ومن حكمته، أن يري العبد ضعفه، وأن قوته مخوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له، لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة، لطفى وبغى وعنا.

وليعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة، يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه.

﴿٥٥ - ٥٧﴾

﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة، وسرعة مجيئه، وأنه إذا قامت الساعة ﴿يقسم المجرمون﴾ بالله أنهم ﴿ما لبثوا﴾ في الدنيا إلا ﴿ساعة﴾ وذلك



على سائر الأعمال، والزكاة التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتضع أخاه المسلم، وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر بحجة الله على محبة للمال، فيخرجه محبوه من المال لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

فـ ﴿أولئك﴾ هم المحسنون، الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿على هدى﴾ أي: عظيم، كما يفيدته التنكير، وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم ﴿من ربهم﴾ الذي لم يزل يريهم بالنعم، ويدفع عنهم النقم.

وهذا الهدى الذي أوصله إليهم، من تربيته الخاصة بأوليائه، وهو أفضل أنواع التربية. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الذين أدركوأرضار ربهم، وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطه وعقابه. وذلك لسلكهم طريق الفلاح، الذي لا طريق له غيرها.

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن، المقبلين عليه، ذكر من أعرض عنه، ولم يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك، بأن تعرض عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال، وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه، فلذلك قال:

﴿٦٦ - ٩﴾ ﴿ومن الناس من يشتري

(٥) زيادة من: ب.

(٦) زيادة من: ب.

المكارة، ويسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير.

عليه^(٥).
ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص الفسدة أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر [حكمته]^(٦) فائده، والنهاي عن الشيء مع ذكر مضرتة.

ومن إحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ بالبلغ، الذي تعتدل به النفوس الخيرة وتحكم، فتعمل بالخزم.

ومن إحكامها: أنك تجهد آياته المتكررة، كالتقصص، والأحكام، ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف. فكلما ازداد بها البصير تدبراً، وأعمل فيها العقل تفكيراً، انبهر عقله، وذهل ليه، من التوافق والتواطؤ، وجزم جزماً لا يمتري فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن - مع أنه حكيم - يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به، إلا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق.

فإنه ﴿هدى﴾ لهم، يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم، ﴿ورحمة﴾ لهم، تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة، والخير الكثير، والشواب الجزيل، والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء.

ثم وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل، وخص من العمل عمليين فاضلين: الصلاة الشاملة على الإخلاص ومناجاة الله تعالى، والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة

﴿ولا يستخفك الذين لا يوقنون﴾ أي: قد ضعف إيمانهم، وقل يقينهم، فخفت لذلك أحلامهم، وقل صبرهم، فإنك أن يستخفك هؤلاء، فإنك إن لم تجعلهم^(١) منك على بال وتحذر منهم، وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفوس تساعدكم على هذا، وتطلب التشبه الموافقة^(٢)، وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل، يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين ضعيف [العقل]^(٣) خفيفه.

فالأول بمنزلة اللب، والآخر بمنزلة القشور. فالله المستعان.

تفسير سورة لقمان وهي مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم * هدى ورحمة للمحسنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾ أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير.

من إحكامها، أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها، أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص والتحريف.

ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار^(٤) السابقة واللاحقة، والأمر الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء أولم يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت

(١) كذا في ب وفي أ: تجعل.

(٢) كذا في ب وفي أ: والمرافقة.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في أ: الأحكام والصريب من: ب.

دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين* يتلو تعالى على عباده آثاراً من آثار قدرته، ويدائع من بدائع حكيمته، ونعماً من آثار رحمته، فقال: ﴿خلق السماوات﴾ السبع، على عظمها، وسعتها، وكشافتها، وارتفاعها الهائل. ﴿بغير عمد ترونها﴾ أي: ليس لها عمد، ولو كان لها عمد لرؤيت، وإنما استقرت واستمسكت، بقدره الله تعالى.

﴿وألقي في الأرض رواسي﴾ أي: جبالاً عظيمة، ركزها في أرجائها وأنحائها، لثلاً، ﴿تعيد بكم﴾ فلولا الجبال الراسيات لمادت الأرض، ولما استقرت بساكنيها.

﴿وبث فيها من كل دابة﴾ أي: نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب، التي هي مسخرة لبني آدم، ومصالحهم ومنافعهم. ولما بشها في الأرض، علم تعالى أنه لا بدلها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركاً، ﴿فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ المنظر، نافع مبارك، فترعت فيه الدواب المنبثثة، وسكن إليه كل حيوان.

﴿هذا﴾ أي: خلق العالم العلوي والسفلي، من جماد، وحيوان، وسوق أرزاق الخلق إليهم. ﴿خلق الله﴾ وحده لا شريك له، كل مقر بذلك حتى أنتم يا معشر المشركين.

﴿فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ أي: الذين جعلتموهم له شركاء، تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا، أن يكون لهم خلق كخلقه، ورزق كرزقه، فإن كان لهم شيء من ذلك فأروني، ليصح ما ادعيتهم فيهم من استحقاق العبادة.

ومن المعلوم أنهم لا يقدر أن يروه شيئاً من الخلق لها، لأن جميع المذكورات، قد أقروا أنها خلق الله وحده، ولا ثم شيء يعلم غيرها،

عن الحديث النافع، والعمل النافع، والحق المبين، والصرط المستقيم. ولا يتم له هذا، حتى يقدح في الهدى والحق، ويتخذ آيات الله هزواً ويسخر بها وبمن جاء بها، فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه، والقدح في الحق والاستهزاء به وبأهله، أضل من لا علم عنده، وخدعه بما يوحيه إليه من القول الذي لا يميزه ذلك الضال ولا يعرف حقيقته.

﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾ بما ضلوا وأضلوا، واستهزؤوا [بآيات الله] ^(١) وكذبوا الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا﴾ ليؤمن بها وينقاد لها، ﴿ولي مستكبراً﴾ أي: أدبر إديار مستكبر عنها، راد لها، ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه، بل أدبر عنها ﴿كأن لم يسمعها﴾ بل ﴿كأن في أذنيه وقراً﴾ أي: صمماً لا تصل إليه الأصوات، فهذا لا حيلة في هدايته.

﴿قبشره﴾ بشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم، وفي بشرته السوء والظلمة والغبرة. ﴿بعذاب أليم﴾ مؤلم لقلبه ولبدنه، لا يقادر قدره، ولا يدري بعظيم أمره، وهذه بشارة أهل الشر، فلا نعمت البشارة.

وأما بشارة أهل الخير فقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر بالإسلام، والعمل الصالح.

﴿لهم جنات النعيم﴾ بشارة لهم بما قدموه، وقرئ لهم بما أسلفوه. ﴿خالدين فيها﴾ أي: في جنات النعيم، نعيم القلب والروح والبدن.

﴿وعد الله حقاً﴾ لا يمكن أن يخلف ولا يغير ولا يتبدل. ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ كامل العزة، كامل الحكمة، من عزته وحكمته، وفق من وفق، وخذل من خذل، بحسب ما اقتضاه علمه فيهم وحكمته.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تعمد بكم وبث فيها من كل

وَأَلْقَى فِيهَا مَاءً فَانْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَرَكَ الْجِبَالَ رُحًا وَإِذَا تَجَالَى الْأَشْرَارُ إِذَا تَفَهَقُوا إِذْ تُبْعَثُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا بُرُوجًا حُمْرَ النَّسَارِ

لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين * وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً قبشره بعذاب أليم * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم * خالدين فيها وعدهم الله حقاً وهو العزيز الحكيم

أي: ﴿ومن الناس من﴾ هو محروم مخذول ﴿يشترى﴾ أي: يختار ويرغب رغبة من يبذل الثمن في الشيء. ﴿لهو الحديث﴾ أي: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادة لها عن أجل مطلوب. فدخل في هذا، كل كلام محرم، وكل لغو وباطل، وهذيان من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الراديين على الحق، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن غيبة، ونميمة، وكذب، وشتم، وسب، ومن غناء ومزامير شيطان، ومن الماجريات الملهية، التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا.

فهذا الصنف من الناس، يشتري لهو الحديث عن هدي الحديث ﴿ليضل﴾ الناس ﴿بغير علم﴾ أي: بعدما ضل بفعله، أضل غيره، لأن الإضلال ناشيء عن الضلال.

وإضلاله في هذا الحديث، صده

الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيثيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الويل؟

ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: ﴿حملته أمه وهنا على وهن﴾ أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من السحيم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.

ثم ﴿فصاله في عامين﴾ وهو ملازم لحضانه أمه وكفالتها ورضاعها، أمّا يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب، أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿وإن جاهدك﴾ أي: اجتهد والداك ﴿على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما، لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، و«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

ولم يقل: «وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فعهما»، بل قال: ﴿فلا تطعهما﴾ أي: بالشرك، وأما برهما، فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما.

﴿واتبع سبيل من أناب إلى﴾ وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه.

واتباع سبيلهم، أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي الله ويقرب منه.

﴿ثم إلى موجعكم﴾ الطوائع والمعاصي والمنيب، وغيره ﴿فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

(٥) زيادة من: ب.

أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه﴾

أو قال له قولاً به يعظه بالأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبيّن له السبب في ذلك فقال: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ ووجه كونه عظيماً، أنه لا أظفّع وأبشع من سؤى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسؤى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمن له الأمر كله، وسؤى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسؤى من لم يُنعم بمثقال ذرة [من النعم] ^(١) بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم وديانهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟!!

وهل أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفية، [فجعلها في أخس المراتب] ^(٢) جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئاً، فظلم نفسه ظلماً كبيراً.

ولما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال: ﴿ووصينا الإنسان﴾ أي: عهدنا إليه، وجعلناه وصية عنده، سنسأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿بوالديه﴾ وقلنا له: ﴿اشكر لي﴾ بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي، ﴿ولو اليك﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما [وإكرامهما] ^(٣) وإجلالهما، والقيام بمؤنتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.

فوصيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿إلى المصير﴾ أي: سترجع إليها الإنسان إلى من وصاك وكلفك بهذه

ثبتت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد.

ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال: ﴿بئس الظالمون في ضلال مبين﴾ أي: جلي واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور.

﴿١٢-١٩﴾ ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد﴾ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ إلى آخر القصة. يجبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان، بالحكمة، وهي العلم [بالحق] ^(١) على وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكيماً.

وأما الحكمة، فهي متلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح.

ولما أعطاه الله هذه النعمة العظيمة، أمره أن يشكره على ما أعطاه، ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين، يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله، عاد وبطل ذلك عليه. والله غني [عنه] ^(٢) حميد فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره، فغناه تعالى، من لوازم ذاته، وكونه حميداً في صفات كماله، حميداً في جميل صنعه، من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبياً، أو عبداً صالحاً؟ والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر

(١) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

﴿٢٠-٢١﴾ ألم تروا أن الله سخر

لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير * يمتن تعالى على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها، وعدم الغفلة عنها فقال: ﴿ألم تروا﴾ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿أن الله سخر لكم ما في السماوات﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لنفع العباد.

﴿وما في الأرض﴾ من الحيوانات والأشجار والزرع، والأهوار والمعادن ونحوها، كما قال تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾.

﴿وأسبغ عليكم﴾ أي: عمتكم وغمركم نعمه الظاهرة والباطنة التي نعلم بها، والتي تحفى علينا، نعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم، بمحبة النعم والخضوع له، وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

﴿ولكن مع توالي هذه النعم، ﴿ومن الناس من﴾ لم يشكرها، بل كفرها وكفر بمن أنعم بها، وجحد الحق الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، فجعل ﴿يجادل في الله﴾ أي: يجادل عن الباطل ليحرض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير بصيرة، فليس جداله عن علم، فيتكبر وشأنه، ويسمع له في الكلام ﴿ولا هدى﴾ يقتدي به بالمهتدين ﴿ولا كتاب منير﴾ [غير مبين للحق فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين] (١) وإنما جداله في الله مبني

﴿فخور﴾ بقوله.

﴿واقصد في مشيك﴾ أي: امش متواضعاً مستكيناً، لا مشي البطر والتكبر، ولا مشي التماوت. ﴿واغضض من صوتك﴾ أدباً مع الناس ومع الله، ﴿إن أنكر الأصوات﴾ أي: أنقطعها وأبشعها ﴿لصوت الحمير﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الخمار، الذي قد علمت خسته وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهياً.

وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة، أنها العلم بالأحكام وحكمها ومناسباتها، فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبيّن له الموجب لتركه، وأمره ببر الوالدين، وبيّن له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احتز بأن محل برهما وامتثال أوامرهما ما لم يأمرهما بمعصية، ومع ذلك فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهدها على الشرك. وأمره بمراقبة الله، وخوفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها.

ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر والمزح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر، كما قال تعالى: فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا، أن يكون مخصوصاً بالحكمة، مشهوراً بها. ولهذا من مئة الله عليه وعلى سائر عباده، أن قصص عليهم من حكمته، ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿يا بُنَيَّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، ﴿فتكن في صحرة﴾ أي: في وسطها ﴿أو في السماوات أو في الأرض﴾ في أي: جهة من جهاتهما ﴿يأت بها الله﴾ لسعة علمه، وتام خبرته، وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا، الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهب من عمل القبيح، قل أو كثر.

﴿يا بُنَيَّ أقم الصلاة﴾ حثه عليها، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية، ﴿وأمر بالمعروف وإنه عن المنكر﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه.

والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق، والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿واصبر على ما أصابك﴾ ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فنضمن هذا، تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهيه.

ولما علم أنه لا بد أن يتلى إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿واصبر على ما أصابك إن ذلك﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿من عزم الأمور﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿ولا تصغر خدك للناس﴾ أي: لا تجلّ وتعيس بوجهك للناس، تكبراً عليهم وتعاضلاً.

﴿ولا تمس في الأرض مرحاً﴾ أي: يطرأ، فخرأ بالنعم، ناسياً المنعم، معجباً بنفسك. ﴿إن الله لا يحب كل مختال﴾ (١) في نفسه وهيئته وتعاضله

(١) كذا في: ب، وزاد في: أ قوله تعالى: فخور.

(٢) زيادة من: ب.

وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، ليدرك العباد شيئاً منه، وإلا، فالأمر أعظم وأجل.

ثم ذكر جلاله عزته وكمال حكمته فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة جميعاً، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، أعطاهما للخلق، فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كلهم وتصرف فيهم وديبرهم، وبحكمته خلق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره.

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال:

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كُنُفٌ وَاحِدَةٌ﴾ وهذا شيء يمجّر العقول، إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم، بعد تفرقهم في لحظة واحدة - كخلقه نفساً واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته.

ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات، وبصره لجميع المبصرات، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾
﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ فِي أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير، وهذا فيه أيضاً، انفراده بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما ذهب الآخر.

وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما،

﴿وَالْبَحْرَ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ﴾ مداداً يستمد بها، لتكسرت تلك الأقسام، ولفني ذلك المداد، ولم تنفذ كلمات الله تعالى، وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تنقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم تعالى تنبيهاً تستنير به قلوبهم، وتنشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بره: «لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، وإلا، فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

وهذا التمثيل، من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلا الأفهام والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدت^(١) بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفاذها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة.

وأما كلام الله تعالى، فلا يتصور نفاذه، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي، على أنه لا نفاذ له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾.

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وأخريته، وأنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية.

والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله



القدرية، وأحكامه الأمرية، وأحكامه الجزائية، فكلهم عبيد ممالك، مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق. ﴿مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾.

وأن أعمال النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئاً وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه، أن أغناهم وأقناهم في دنياهم وأخراهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقها يحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، يحمد عليه.

ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبه له العقول، وتحير فيه الأفتدة، وتسبيح في معرفته أولو الألباب والبصائر، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ يكتب بها

(١) في ب: مذت.